٥ ـ إلى أرض النبوة

للأستاذ على الطنطاوى

قرأتَ فى المقالة الماضية وصفاً للصحراء ليلها ونهارها وشدتها إذا اشتدت ولينها إن لانت ، على أنها تختصر صفتها ، ويوجز تاريخها فى كلمتين اثنتين هما : الحب والحرب ، فليلها للحب ، ونهارها حرب ، حرب مع الشمس اللاهبة والرمال المشتعلة ، والضلال والموت ، وحرب مع الناس ؛ فإذا أدركك المساء ، ولا يدرك مساءها إلا كل بطل صبار قوى متين ، تفتح للحب قلبك ، فأحسست فيه بشوق إلى الهيام كشوق الظمآن إلى الماء الزلال ، وشعرت كأن البادية كلها ملكك ، فأنت منها فى روضة وغدير ، تعانق بدرها إن لم تجد من تعانقه ، وتسامر نجمها إن أعوزك من تسامره ، ويقبل عارضيك نسيمها الرخى الحبيب الذى يصور لك أنفاس الأحبة ...

أشهد لقد نقّلت ليالى الصحراء نفسى ، وصفّتها ، وعلمتها الشعور بجمال القبح وأنس الوحشة وأغانى الصمت ، فعرفتْ جمال الكون ، فأوصلها إلى معرفة كمال المكوّن ، كما صهرت أنهار الصحراء عزيمتى فألقت عن نفسى أوضار الخوف والجبن والضعف والتردد ، وأشعرتها عظمة الطبيعة وقوتها ، فشعرت بعظمة الطابع ، ولم أكن أعدم النظر فى الآفاق الواسعة ، ولا حرمت التحديق فى المناظر البعيدة ، وإنى لأبصر من شباك دارى دمشق كلها وغوطتها والقرى المنثورة فيها ، لا يغيب عنى من ذلك شىء فأرى فيها نهاية الجمال والرواء ، ولكنى لا أرى فيها ظهر الصحراء ولا صفاءها. الصحراء مبسوطة مكشوفة كالرجل الصريح الشريف ظاهرها كباطنها لا تخفى سراً ، ولا تبطن دون ما تظهر أمراً... ليست كالمدن ولا كالرياض ، والله وحده يعلم كم يتوارى خلال تلك الأشجار المزهرة المخضرّة ، وتحت تلك السقوف المزخرفة والقباب والسطوح من رذائل ورزايا ، وكم يسكنها من عوالم الكذب والنفاق والحسد

إن الله حرم الصحراء رواء المدن ، وروعة السهول ، وفتنة الأنهار ، ولكنه عاضها عن ذلك ما هو أحلى وأسمى : جمال الصدق وبهاء الصراحة ، وسناء الإخلاص ، ليس فى الصحراء مثل النيل ولا الفرات تأوى إلى ضفافه ، وتبصر غروب الشمس فى مائه ، وتمخر بالزورق عبابه ، وما فيها إلا برك وغدران قليلة الماء غير دائمة ولا باقية، ولكنها على ذلك أجل من النيل ، وأجل من الفرات لأنها فى .. الصحراء !

* * *

لست أستطيع أن أترجم لك عمّا لليالى الصحراء من معنى فى نفسى ، لأن لغة الألسنة لا تترجم عن القلوب . ويا ليتنى أقدر أن أصف لك تلك الكائنات الخفية التى تعيش فى ليالى الصحراء فتخاطب القلوب بما لا تنقله الأقلام

واشهدوا على أنى أوثر الصحراء على كل مظاهر الطبيعة المطبوعة ، إلا الأودية والجبال ، فإن للجبال السامقة ذات الصخور المائلة كالجبابرة لا تبلغ هامها النسور ولا العقبان ، ولا يسكنها إلا الثلج الأبيض ... والأودية العميقة التى لا يبلغ قرارتها إلا الشلال المتحدر من أعالى الجبال ، ولا يعيش فيها إلا السواقى الحائرة التى تهيم على وجهها ذاهلة لا تصحو إلا على جرجرة أمواج البحر الذى يفتح فاه لابتلاعها ... وإن فى التواء الوادى حتى يضيع الطريق فيه ، وفى اختفاء الشِّعب الضيق خلال الصخور ، وفى ضلال الساقية بين الحشائش والحجارة، لمعنى من معانى المجهول لا ألقاه فى الصحراء المكشوفة العارية ؛ ولكن للصحراء سحرها وجمالها وإنى لأفضلها على السهول والبساتين ...

* * *

سلكنا بعد الفُرَيّات مهامه وفلوات لا يعرف لها أول ولا آخر . ولا أدرى ولا يدرى أحد ممن كان معنا أين موقعها على المصوّر الجغرافى . وكنا كلما زدنا إيغالاً فى الصحراء زادت بنا بعداً عن مظاهر الحياة ، حتى أحسسنا كأن قد ودّعنا هذا العالم ، وكأن دمشق وبغداد والقاهرة صور شعرية تخطر على البال ويدركها الخيال ولكن الواقع خلوٌ منها ، واسترحنا من هموم الاجتماع ومشاغل السياسة وأعباء الفكر واستسلمنا إلى القادر ، فغدا شعورنا بالحياة كشعور من يرى فى نومه أنه سائر على وجه الريح ، أو مضطجع على صفحة الماء يحمله إلى حيث يشاء ، فإما أن يغرق وإما أن يبلغ ما يريد ، ولكنه على الحالين راضٍ قانع لا يشكو ولا يتبرم

وكان همنا الأكبر أن نتأمل الأرض أو ننظر فى الفضاء لنأمن عثرة السيارة ونتجو من الضلال ، وما فى البرية علامة يهتدى بها إلا النجوم ، فعرفت بذلك معنى قوله تعالى : (وبالنجم

هم يهتدون) . وعرفت سرّ اعتماد العرب عليها فى تحديد مواقع البلدان حتى أن الشاعر المحتضر ليسرّه أن يرى سهيلاً لأنه يذكره بلاده وأرضه ...

وكنا نمر على الأرض المتماسكة الصلبة فنحمد الله عليها ونسرع . ثم نمر على القاع ، والقاع فى عرف البدو أرض طينية كان فيها غدير من ماء المطر فجف وترك فيها شقوقاً وغادرها مستوية كالطبق ، ويسمى القاع فى بادية الشام (على طريق بغداد) طليحة ... ونمر على مسيل قد جرف الماء ترابه وأبقى فيه حجارة كباراً وصغاراً ، وهو والشعب شر ما نمر عليه ، والشعب فى عرفهم أرض فيها رمل قليل هشّ ونبات صحراوى ... أو نصعد رابية أو تلة ، وامتدت هذه الرحلة (من القريات إلى تبوك) أربع ليال ، مررنا فيها على مياه من مياه العرب ، وهى آبار منتنة خبيثة الطعم واللون والرائحة ، تضع المنديل بين فمك ومائها فتلقى عليه مثال الوحل أو ما هو أخبث ، تسمى غطى والميساوية والفجر ، ولم نصادف فى هذه الرحلة ماء غير ذلك ...

ولا تسألنى أين هذه المياه ، ولا تطلب إلىّ تحديداً ولا يقيناً فلست أعرف ذلك ، وإنما أعرف أننا تركنا وادى سرحان عن شمائلنا وسرنا قِبَل الجنوب حتى لاحت لنا عن اليمين جبال عالية ، فأممناها حتى إذا اقتربنا منها سرنا بحذائها على أرض ما رأينا أعجب منها ، فهى أرض سوية متسعة مشينا فى طرفها تسعين كيلاً ، فيها حجارة سود دقاق مرصوفة رصفاً كأنها أرض ميدان واسع فى مدينة كبيرة فرشت وثبتت بالمداحل ، وهم يسمونها (بسيطة) بصيغة التصغير . وسلوا أهل الجغرافيا يعرفوكم موضعها على المصور ، حتى وجدنا ثغرة فى الجبل فدخلنا منها ، فإذا نحن فى واد ما رأيت فى عمرى مكاناً أوحش منه ، وكلما أبعدنا فيه ازدادت وحشتنا ، ولم يكن حولنا إلا الصخور والتلاع والقلل الشامخة ، والوادى يتشعب بنا ويتفرع ، ونحن منفردون بين ذلك كله ، وطال الوادى حتى أمسى علينا المساء فبتنا فيه ، ولم ندر أننا ضالون حتى أصبحنا غداة الغد ، فخالط قلوبنا الرعب من أن تكون خاتمة مطافنا أن ندفن فى بقعة لا يعرفها إنسان ونحرم قبراً يستوقف السالكين ، ويستجديهم دعوة صالحة .

وكانت ساعة يأس أحيت فى نفوسنا الماضى الذى ظننا أنا نسيناه فتلفتنا بالقلوب إلى دمشق فإذا نحن منها على مسيرة سبع ليال بالسيارة ، ولكن ما إليها من سبيل ، فجعل كل منا يذكر أهله وأحبابه ، ويتخيل ماذا يحل بهم من بعده ، ويتصور بردى يجرى زاخراً دفاعاً ونحن نكاد نموت عطشاً لأن الماء الذى معنا قد شح ونفد إلا الأقل منه احتبسه الأقوياء منا ، وبلغت المسألة مبلغ التنازع على الحياة ، ولم يبق إلا الأثرة الشنيعة أو الإيثار البالغ . وحار الدليل وأظهر حيرته حين لم يعد مكان لإخفائها .

وكان يدع السيارة فى قعر الوادى ويصعد قمم الصخور ينظر فلا يرى شيئاً ، فيعود فيسير بنا على غير هدى ، حتى نظر مرة وكان ذلك فى مساء اليوم الثانى لدخولنا وادى الموت هنا ... فلمح جبلاً فهلل وكبّر وقال : وصلنا . . . هذا شَرَوْرَى !

وشرورى جبل قريب من تبوك أظن أن (ياقوت) قد ذكره.

فسرنا إلى الليل وشرورى مكانه عند الأفق لا يدنو ولا يريم ، فنزلنا للمبيت ... وعاودنا السير من الصباح فاخترق الجبل وهبطنا إلى جوف الأرض حتى وصلنا إلى موضع رأينا فيه جبلاً عظيماً يسد الوادى فتشاورنا فلم نجد بداً من صعوده بالسيارات وما تحمل من الأثقال ، فجعلنا نصعد وندور ونحتال على الارتقاء حتى إذا بلغنا القمة بعد مخاوف ومتاعب لا ينفع معها وصف . نظرنا تحت أرجلنا ، فإذا فى الحضيض الأوهد البعيد فضاء فسيح كالبحر ، فى وسطه سواد ، كأنه باخرة ماخرة ، فقال الدليل مشيراً إليه : هذه تبوك !

علي الطنطاوي

* * *

حاشية : لعل فى القراء من أحس أن بين المقالة المنشورة المرقومة بـ (٣) والتى قبلها كلاما منقطعا ، فليعلم أن بينهما مقالة لم تنشر . وأكبر الظن أنها قد قطعت من الوصول . « الرسالة » : نعم ، لم تصل

إدارة البلديات — المطافىء

تقبل العطاءات بمجلس طنطا البلدى لغاية ظهر ٨ أغسطس سنة ١٩٤٠ عن توريد أدوات الإنارة بالبنزين والجاز اللازمة للمجالس الواقعة بدائرة مديرية الغربية وتطلب الشروط من مجلس طنطا نظير ٢٠٠ مليم ٧٠٠٠